التعليم والتنمية*

دكتور/اسماعيل صبرى عبد الله

تقـــــديم :

الأستاذ الدكتور اسماعيل صبرى عبد الله قمة من قمم الفكر والاقتصاد فى مصر ، كان مديرا لمعهد التخطيط القومى ، ووزيرا للتخطيط وهو الآن رئيس منتدى العالم الثالث ومعظمنا يتابع نشاطه العلمى والفكرى وهو من الرواد ·· نظريا وعمليا معاناة ، لا أول لها ولا آخر · وكان يساورنى الشك عندما ما اتصلت بسيادته أن يقبل الدعوة فى هذا المكان البسيط المتواضع لكننى فوجئت بترحيبه من أول دعوة فشكرت له ذلك وأعتقد أن هذه سمة المفكر والمثقف صاحب الرسالة يرحب دائما بأى سبيل يتاح له كى يتصل فكرا وعقلا بالآخرين فأهلا به وسهلا · خاصة وأنه سوف يحدثنا فى هذه الليلة عن ذلك الموضوع الذى يعقد الصلة بين التعليم وبين الاقتصاد · فنحن نعلم أننا فى كليات التربية منذ سنوات محدودة قد بدأنا نمد أيدينا الى الفكر الاقتصادى والبحوث الاقتصادية ، لما أدركناه من الوظيفة الاستثمارية والانتاجية للتعليم · وقد اعتمدنا كتربويين فى كل ذلك على عمل أساتذة وعلماء الاقتصاد لكننا لم نر بعد اسهاما بارزا يحفر طريقا حقيقيا من تربوى فى مجال اقتصاديات التعليم ·

فلعل هذا الحديث الليلة من أستاذ كبير فى الاقتصاد أن يوضح لنا الكثير من معالم الطريق ··· فليتفضل ···

* * * *

شكرا سيدى الرئيس وشكرا على الكلمات الطيبة التى قلتها فى حقى فيما عدا موضوع الوزارة ـ الوزارة هذه كانت حادثة فى حياتى وأحمد الله أنها لم تكن حادثة قاتلة · وأن خرجت منها سليم العقل والدين ·

الواقع أنه فى شبابى البعيد أول ما سمعنا عن كلمة التربية سمعناها من خلال خلاف بين طه حسين واسماعيل القبانى · طه حسين كما تعلمون منذ كتاب (مستقبل الثقافة فى مصر) الذى صدر فى نوفمبر سنة ١٩٣٨ ، وأثر فعلا فى تشكيل كل تطورات التعليم اللاحقة ان ايجابا أو سلبا ، رفع شعار العلم للجميع ، العلم كالماء العلم كالهواء · بالقطع بالنسبة لشاب

---

* احدى ندوات رابطة التربية الحديثة فى ١٩٨٦/١٢/٢٥ ·

مشغول بقضية العدالة الاجتماعية وما يتصل بها كان مثل هذا الشعار لا أقول براقا فقط ، بل كان جذابا الى أقصى حدود الجاذبية ٠

بالطبع الآن ندرك أن الهواء النقى سلعة نادرة جدا ، هواء القاهرة ملوث ٠٠ يتجاوز أى مدينة أخرى فى العالم يمكن الماء النظيف الذى نشربه ، أيضا مكلف ٠٠٠ وأنه فى بلد مثل مصر على الأقل على نهاية القرن بالقطع سوف يكون برميل المياه أغلى من برميل البترول ، لكن فى ذلك الوقت تحمسنا لهذا الشعار ٠ وكرد فعل طبيعى ، أخذنا موقفا ضد ما يسمى (التربية) والذى كان يتعمد طه حسين أن يسميها (بيداجوجيا) ٠

وبالتالى بما أن زعيم المدرسة الأخرى كان اسماعيل القبانى وكان يسانده الدكتور السنهورى عندما تولى وزارة المعارف ٠ فالخط السياسى ظل فى نظرنا واضح جدا ٠ أحزاب الأقلية الموالية للسراى تستغل عدم دراية السنهورى بهذه المسائل لأنه رجل قانونى ، لكن ليس معنى ذلك أنه عرف القضايا الاجتماعية وان العقل المفكر فى هذا كله هو اسماعيل القبانى فأصبحت التربية مقترنة فى ذهننا فى ذلك الوقت بالنظرة الرجعية للتعليم بدلا أن تكون ما هى عليه حقيقة ، أنها وسيلة ارتقاء بالتعليم وأساليب تلقى المعرفة وتكوين الشخصية ٠

بالطبع هذا التاريخ قديم جدا والحمد لله رجعت عن هذا الموقف ـ لا أقول الرجعى بل أقول السخيف والمغرور ـ الى موقف السعى للتعلم بما يتعلق بالتربية ٠ وأعتقد أن على المستوى المحلى صالحنى مع التربية د٠ عبد العزيز القوصى ـ أطال الله حياته ـ رغم أننا لم نلتقى لقاء شخصيا يذكر ، ولكن قرأت له وخصوصا مساهماته التى كانت تظهر فى شكل مقالات ، لأنه كان من الصعب اليوم أن أشترى كتابا فى التربية فقط (مش داخلة فى دماغى) ٠

لكن بعد قراءات هنا وقراءات هناك ـ أولا : عرفت كيف أضع التربية فى مكانها الحالى ٠ ثم فى مرحلة ثالثة من دراسة قضية التنمية ، ويمكن فى السنوات الأخيرة بالذات استقر رأيى على أن التربية قضية أساسية جدا فى التنمية ، وان كل ما كتب فى التنمية اهتم (بالأشياء) ولم يهتم (بالناس) والأشياء هذه كانت اما أنها من صنع البشر واما أنها موجودة فى صورة سلبية لا يستفيد منها البشر ٠

الفرق بين ما نسميه مورد طبيعى وما ليس موردا ، ان الانسان

اكتشف وسيلة لاستخدام هـذا الشيء فى ارضاء حاجاته فيتحول من أنه لا شيء ليس له قيمة الى شيء له قيمة ـ المثل المشهور ـ تبخـر الغـازات الطبيعية فى ايران كان يستخدم فقـط فى النار المقدسة فى المعابد ـ لأن هـذه النار كانت حقيقية ٠٠ النار تطلع من الأرض ، يعنى الايرانيين الذين كانوا يعبدون النار لم يكونوا مجانين ٠٠ يتخيل لهم أن النار تخرج من الأرض ٠ فهى كان تخرج من الأرض فعلا ـ وظل بترول ايران الى مستهل القرن الحالى لا استخدام له ـ ولا يعتبر موردا ، حتى اكتشـف المحـرك ذو الاحتراق الداخلى ـ مثلما يقول المهندسـون وبدأ الطلب على البترول ومنتجـاته ، أصبح هـذا البترول موردا بالمعنى الاقتصادى ٠

فاذن ، الانسـان هو الألف والبيـاء فى كل عمليـة التنمية وان هـذا الانسان فى الأصل ـ كما يقال ـ بلغة الصناعة ـ خامة طيبة جـدا ، ولكن هل تصنع منه شيئا ثمينا أو تفسـده تمـاما ؟٠ هـذا يتوقف على استخدام الانسان فيه ـ قطعة المـاس التى من المكن أن يصنع منها حلية جميلة جـدا وبالغة القيمة ٠٠ ممكن يستخدمها واحـد آخر فى أن ينشر بها الزجاج كى يسرق ـ لكنها هى هى قطعة ماس لم تتغـير بين الاستعمالين وانمـا الذى غيرها ، من أداة زينة الى أداة جريمة ـ هى رغبة الانسان وارادته ٠٠

وهكذا كنت قـد بدأت برفض مفهوم التربية رفضا كاملا الى أن وصلت الى الاهتمام البالغ بها ـ وكيف تطرح قضية التربية فى العصر الحديث ٠٠ وكيف تطرح فى اطار مجتمع فرض عليه الاستعمار التخلف وعليه أن يجـدد شبابه وأن يتقـدم وعمـدة التقـدم هم الناس ٠ وفى وسعنا أن نستورد كل شيء الا الأيادى والعقول ٠٠ وعلينا أن نعرف كيف نستفيد منها ٠

رغم أن حديثنـا هـذه الليلة هو (التربية والتنمية) هنا نجـد لدينـا كلمتين هما تربية وتنمية ، وكل منهما تثير مشاكل وكانت محـل بحـوث ومناقشات ٠ لا أسـتطيع أن أفيض فى القضايا التى يثيرهـا علم التربيـة والمفاهيم الخاطئة التى توجـد فى مواجهته والقضايا التى تحسم الفرق بين التربية والتعليم ٠ فى التعليم نقول التعليم المدرسى والتعليم غير المدرسى ٠ الفرق بين التلقين وتنمية الملكات والقـدرات على التعرف والتعلم الذاتى ٠ على التعليم للتعليم بهـدف المعرفة (الهدف السامى الذى نحترمه جميعا) أم أن التعليم بصورته الفجة جـدا مطلوب منه أن يقـدم عمالا ومهندسين فقـط أو مثل ذلك ـ أداة للانتاج فقـط ؟

كل هذه القضايا ينظر لها من ناحية علم التربية وأنتم أدرى بها منى ٠

ولكن أريد أن أركز قليلا على مفهوم التنمية ، لأنه من خلال مفهوم التنمية نستطيع أن نضع التربية فعلا فى وضعها الحقيقى ٠ وأريد قبل أن أدخل فى صميم هذه القضية ، أن أقول أن المجتمعات الزاهية فى البلاد قبل التجربة الرأسمالية الغربية كان عندها مفهوم للتربية بمقاييس عصرها يعد متقدما جدا بالنسبة لممارسات التربية التى تمت فى الغرب الى سنوات محدودة مرت لما حصل اهتمامات أكثر ٠ لأن : سواء كان فى الحضارة اليونانية أو فى الحضارة العربية الاسلامية أو فى الحضارة الصينية ، الجوهر هو تربية الانسان ، وهو مقدمة لاكتساب كل الصناعات وكل الحرف وكل شىء ٠ لما نقرأ فى الفلسفة اليونانية لماذا نتعلم ؟ لتكوين المواطن ٠٠ كتابات أرسطو ، المجموعة كلها سواء كتاب الفيزيقا أو الميتافيزيقا أو البولتيقا موجهة الى المواطن الأثينى لكى يملأ مكانه الذى يجب أن يتولاه ٠

عندنا أيضا الكتاب العرب والفلاسفة العرب الذين كتبوا منذ عشر قرون أو من احدى عشر قرنا كانت كتاباتهم موجهة للانسان باستمرار ماذا يعتبر فضيلة ؟ أو يعتبر رذيلة ؟ بغض النظر عن معيار أرسطو الذى كان متصلا بالمدينة والمعيار عند كتاب المسلمين كان مرتبطا بالدين وبالله ، لكن فى النهاية هو حديث عن الفضيلة والرذيلة والفائدة للمجتمع وعلاقة الفرد بالمجتمع والفرع الأخلاقى كاملا كله يتجه الى الانسان مباشرة ، والذى تحكمه حوافز غير مادية ٠ اذا كان الاقتصاد مبنيا على دراسة ما هو مادى فى الأساس ، فالأخلاق مبنية على دراسة ما ليس له قيمة مادية ولكن هو ضرورى لحياة المجتمع ، وكيف طرحه هؤلاء الكتاب كلهم قضية حياة الفرد فى المجتمع وكيف تكون أفضل مما هى عليه أو يحافظ على ما فيها من فضل ٠٠ الى آخره ٠

فى ظل الرأسمالية الغربية وبعد الثورة الصناعية خصوصا ، انبهر الانسان بمخلوقاته : هو الذى صنع الآلة ثم انبهر بها ، وحاليا فى عصرنا الحالى انبهار الناس أمام الكومبيوتر يجعلها تنسى أن الذى عمل الكمبيوتر واذى اخترعه والذى صممه هو بشر مثلهم ٠ والكمبيوتر بدون تدخل بشرى ، آلة ميته ٠ وأن الكمبيوتر بدون خبير يشغله يكون عكس ما يسمونه بالعقل الالكترونى : آلة تتميز بالغباء الشديد ، لأن أسلوب عمل الكمبيوتر ٠٠ هو رد كل المشاكل الى نبضات كهربائية سالب وموجب أى يستخدم منطق (يا مفرد يا مجوز) ٠٠ فلكى يحل معادلة كبيرة يردها الى عمليات جمع وطرح صغيرة جدا من التى يتعلمها تلميذ فى مرحلة التعليم الأساسى ، لكن الميزة

الوحيدة انه يقوم بهذه العمليات بسرعة جدا بحيث يتوصل الى حل المعادلة المعقدة أسرع من الانسان ٠

وبالتالى فالكمبيوتر ليس بديلا للعقل البشرى وانما امتداد له وأداة من أدواته ٠ كما أن الآلات الأخرى ليست بديلا للانسان وانما هى امتداد لقوته العضلية وتعطيه أضعافها ٠ عندما يقوم العامل بتشغيل آلة قوتها ١٠٠ ضعف قوته العضلية ، فالانسان اذن كان قديما فى قلب حياة المجتمع ٠ وكانت بالتالى العلوم المتصلة بالانسان كفرد وكجماعة مثل التربية ومثل الأخلاق وغيرها كان لها مكان بارز وواضح جدا ٠

فى ظل الرأسمالية ابتدأ الانسان يتراجع عن مقدمة الساحة وبدأت الأمور تبدو كما لو أنها علاقة بين الأشياء ، وتحكمها قوى لا يعلم أحد عنها شيئا ٠ حين يقولون مثلا قوى السوق ـ ما هى قوى السوق ؟ ـ وكيف لا يستطيع الانسان وقد سيطر على كثير من قوته وعلى كثير من قوى الطبيعة ابتداء من تحطيم الذرة الى الصعود الى القمر ، وفى حاجة من أخص أموره اليومية ، يعبد اله مجهول الهوية الذى يسمى ـ آليات السوق ـ أو قوى السوق أو مثلما كان يسميه آدم سميث قديما (يد السوق الخفية) ـ التى تحل كل الأمور ٠٠ الى آخره ؟

فى هذا المجال حدث انفصال طبيعى بين أمور ثلاثة : التربية كمفهوم شامل ، والتعليم كأكتساب مهارات أو معارف مهنية محدودة ، والعلم والفكر كبحث مجرد فى الكليات وفى القضايا التى لا تتصل بقضايا الانتاج ٠ وكان الطبيعى أن يكون رد الفعل الأول عند الفئات الصناعية ، الاهتمام بالجانب العملى من التعليم الذى يؤهل العمال لأنهم كانوا بحاجة الى عدد من العمال أكبر من المهندسين ، عكس الوضع الحالى ، أن يكون التعليم العالى مثلا فى اطار توفير الكوادر التى تريدها الدولة أو المشروعات الرأسمالية الكبيرة ٠ من أجل حل مشاكلها ٠

ونحن نرى بلادا كثيرة مثل مصر ما زالت محتفظة بالتقسيم الكلاسيكى للكليات الجامعية ٠٠ كليات الجامعة أصلا ٠٠ لما نشأت عندنا كانت العلوم والآداب والحقوق والطب فقط ٠٠ زراعة وتجارة وكليات أخرى انضمت أيام الهلالى باشا عندما كان وزيرا للمعارف سنة ٣٥ ، ٣٦ ٠ ولكننا اليوم حين ننظر الى تقسيم الكليات ونرى من الناحية الأخرى التطور العلمى والتكنولوجى السريع ، نجد أن فكرة المهنة نفسها التى نشأت الكليات على

أساس تكوين مهنيين فى هذه المهن تقسمت وبعضها وجوانب منها اندثرت لم تعد هامة وجوانب جديدة جدت فيها تماما ، ولكن ما زالت تحمل الوضع التاريخى لنشأتها الذى كان يحدد فعلا كم نحتاج ؟

طبعا ، الرأسمالية الغربية أدركت حقيقة أن انتاجية العامل تتطلب قدرا من التعليم ، ومن هذا تم التوسع فى التعليم ولا سيما التعليم الأساسى فى الوقت الذى كان طه حسين يكتب فيه مستقبل الثقافة فى مصر ، ادوار اليو الذى كان وزيرا للمعارف فرنسا استصدر من البرلمان القانون الذى جعل التعليم فى كافة مراحله بالمجان سنة ١٩٣٤ ، هذه لم تكن منحة لأبناء الفقراء وانما الفكرة أن الصناعة تقدمت ومحتاجة الى عمال أكثر وأكثر تأهيلا ، وأن يتاح لهم جميعا حد أدنى من التعليم ، ومن خلال هذه العملية أيضا يحدث على طريقة دارون نوع من الانتخاب الطبيعى ـ الولد اللامع الذى يمكن أن يكمل لكى يتخرج طبيبا يعتنى بالناس الأغنياء وليس طبيب وحدة ريفية أو يتخرج محاميا يدافع عن مصالح الشركات الكبيرة ، لا بد من أن يكون كفئا ، يتخرج مهندسا كى يشغل عندهم ، لا بد أن يكون مستواه مرتفعا ٠

حين بدأ الكلام عن التنمية نجد أن كل الكتب المكتوبة عن التنمية أساسا تشير الى أن المحور الأساسى الذى يدور حوله كل شىء هو رأس المال سواء شكل رءوس أموال نقدية (القروض ـ المعونات ـ الادخار ـ الاستثمار) ـ أو فى طبيعته العينية ـ أى كآلات ومعدات انتاج ، ولكن عنصر العمل كان يؤخذ من جانب الذين يكتبون فى التنمية ، على أنه موجود ومتوافر ، وان المشكلة فى البلاد النامية هى خلق فرص عمل ٠

وهناك نظريات وجدت عن التنمية أو التصنيع فى اقتصاد ٠٠٠ عرض العمل فيه غير محدود (يعنى مهما سحبت منه عمال سوف تجد رصيدا موجودا) ٠

ونستطيع أن نقول انه بصفة عامة كل بلدان العالم الثالث قصرت الى حد كبير فى العنصر البشرى والاهتمام به ، وان الوكالات الدولية الخاصة بالمعونة وما يتصل بها ، لم يتجاوز تدخلها فى مستوى الاهتمام بمشروعات التدريب المهنى Vocational Training وأشياء من هذا القبيل ، لكن لم يكن هناك اهتمام بالجانب البشرى اطلاقا فى عملية التنمية ، فى حين أن بلدان العالم الثالث بالذات فى هذه الظروف التاريخية التى توجد فيها لظاهرة المسماة بلدان العالم الثالث أو البلدان النامية ـ قضية الانسان وتربيته

بالمعنى الواسع للتربية الذى يصل حتى الى مستوى القيم التى يتبنـاها والقيم التى يتخلص منها الى آخره ٠٠ يمكن بكل جدية وبدون مبالغة اعتبارها مثلما يقول العرب مربط الفرس فى قضية التنمية كلها ٠ ولكى أوضح هذا لا بد وأن أزج ببعض الكلام الاقتصادى فى هذا المجال : عن : ـ تخلف ـ وتنمية ـ وتقدم ٠ فهذه الألفاظ كما تلاحظون ، كل منها مشحون بشحنة عاطفية وقيمية : تخلف ، شىء مكروه فى الطبيعة ـ والتقدم المفروض أن يكون مطلوبا ما دام هناك تقدم ، صحيح اننا قد نتقدم الى جهنم أو لنتقدم الى جرف هاو ثم يقع ، لكن هذه الانسان يستبعدها من الذاكرة الاجتماعية ويضفى على فكرة التقدم بالضرورة قيمة ايجابية لأنه لا يمكن أن تتقدم نحو الهاوية ، وهذا لا يمكن أن يحدث الا فى خيال بعض الروائيين ـ بحيث انها تكون عناوين لطيفة أو غريبة لرواياتهم أو قصصهم ٠

هذا التقديم مضلل فى الحقيقة لأنه حين نقول تخلف : ما هى معالم التخلف ؟ معروفة وفى النهاية توضع نسبة التعليم الى الأفراد الذين هم فى التعليم فى مجموعة بشرية معينة الى آخره ٠ ولكن اذا كان فيه دول متخلفة ودول متقدمة فالسؤال الذى يطرح نفسه : لماذا تخلف هؤلاء ولماذا تقدم الآخرون ؟

هذه القضية يتم الدوران حولها وندر أن يتعرض لها الكاتب فى جوهرها لأنه ان تعرض لها فى جوهرها فالنتيجة خطيرة جدا ٠٠ فالبعض طبعا ما زال فى صميمه يشتغل على المنطق (الهتلرى) وان هذا تمييز عنصرى ٠ ان قد كانت هناك شعوب مؤهلة فتقدمت ، وشعوب كسلانة وجاهلة بالقطع عدد الذين يستطيعون كتابة هذا ، بهذه الوقاحة والوضوح قليلين جدا ٠

ولكن يتم اللف حول هذا لمفهوم وتقديمه بصورة أخرى تحت تعبير « القيم والعادات المنافية للتنمية » وحين تبحث هذا تجد أن كل ميراثنا من قيم وتعودنا عليه وعشنا عليه يجب أن يرفض كله ٠ وأننا يجب أن نحاكى الأوربيين والأمريكان محاكاة كاملة ٠ وأن نكون متقدمين ، عندما نصبح صورة طبق الأصل منهم ٠ بالطبع نحن نعلم أن القدرة على المحاكاة تبلغ قمتها عند الفرد ـ فضيلة الفرد هى المحاكاة أما الفضيلة التى كرم الله بها الانسان فهى الابداع ، فهل الهدف المطروح أمامنا فى العالم الثالث

أن نتحول الى قردة كلنا ؟ أم أن نكون بشرا مبدعين وقادرين على التعامل مع بيئاتنا الطبيعية والبشرية ٠

يقال أيضا حاجات سخيفة ٠٠ البلاد ذات الجو الدافىء أو الحار تعلم الكسل ، والناس لا يتقدمون فى هذه البلاد ، ونسوا جميعا أن هذه البلاد عرفت فى عصور قديمة حضارات زاهية جدا كانت أوربا فيها متخلفة عنها وكانت أمريكا فيها الهنود الحمر ٠ ومن المضحك أنه فى مرة كان وفد طلبه فرنساويين كان عندى ، فاحدى الطالبات سألتنى : ألا ترى أن الاسلام يدعو الى التواكل وبالتالى القيم الاسلامية تعتبر عقبة فى سبيل التقدم ؟ فكان ردى بسيط جدا ـ أن المسألة ليست تحليلية وانما هى مسألة وقائع ـ فى الوقت الذى كنتم تحاكمون فيه جاليلو لأنه قال أن الأرض كروية ، كانت هذه الحقيقة معروفة عند الجغرافيين العرب كلهم ومكتوبة فى كل الكتب وأعطيتها بعض الأمثلة من هذا نوع ٠

لكن فعلا هذا المفهوم موجود لدى الدول الغربية فيما يتعلق بشعوب العالم الثالث ، لأن العالم الغربى كما يمكن أن نقول (ثمل) بنجاحه ـ مع أن هذا النجاح كان مكلفا جدا لو حسبنا عدد الحروب التى تمت فيه ، والناس الذين قتلوا ويكفى أن نقول أن الغرب وحضارته الراهنة هو الذى أدخل البشرية كلها فى حربين عالميتين خلال ثلاثين سنة فقط ـ هذا الى جانب التكاليف كما يقول المحللون فى الايرادات والمصروفات ـ فالتكاليف هنا لابد أن تحسب اذا أردنا أن نقيم الحضارة الغربية وخصوصا فى شكلها المادى.

لن أطيل عليكم كثيرا فى هذا ولكن أريد أن أقول أن تصور التخلف حتى على أنه مجرد تأخر زمنى ـ كلام مضلل وغير حقيقى ، لأنه لم يحدث فى يوم من الايام ان كل الأمم وقفت عند خط البدء من ميدان السباق ثم تسابقوا ـ فبعضهم وصل الى النهاية متقدما وبعضهم لحق به وبعضهم تعثر فى الطريق وبعضهم لم يجاوز جهده الخطوات الأولى فى السباق ـ هذه الصورة خرافية ولم تحدث اطلاقا فى التاريخ ٠

فى الواقع ان ما حدث وأدى الى صورة العالم الحالية هو ظاهرة واحدة كان لها عدة تعبيرات ـ هذه الظاهرة هى النمو التاريخى للنظام الرأسمالى العالمى ٠ هذه الظاهرة أوصلتنا الى أن ١٨٪ من سكان العالم يستهلكون مثلا ٨٠٪ من استهلاك العالم والصورة العكس بالعكس ٠ هذه العملية لم تتم تلقائيا ٠ وانما تمت عن طريق الرأسمالية ـ وظاهرة الاستعمار

الرأسمالى والاستعمار الغربى ـ والاستعمار لم يكن مجرد سيطرة أجنبية · الاستعمار الغربى فى عصر الرأسمالية يختلف عن كل اشكال الغزو والسيطرة السابقة · عمليات الغزو السابقة كانت تطويرا أحيانا لعمليات النهب ـ انك تهجم على بلد تأخذ خيراته وعدد من نسائه وغلمانه وينتهى ·· تلك هى الصورة الأولى ، الصورة الثانية انك تحكم هـذا البلد لمـدة طويلة · تحكمه لمـاذا ؟ لكى تأخـذ منه ما يسمى الجزية ـ ما هى الجزية ؟ جزء من دخـل المجتمع بدلا من أن يوزع داخل المجتمع ، يقتطع قبل التوزيع على الباقى ـ كيف ينتج هـذا الدخل ؟ ـ كل بلد كانت متروكة على أساس الانتاج الموجود فيها ـ مصر حالة جيـدة جـدا فى هـذا المجال ـ مصر من أيام الفراعنة الى عصر محمد على ، نظام الانتاج الخاص بها لم يتغير جذريا وكان الحاكم يحكم من فوق ، ويأخـذ الجزية حتى أنه لم يكن يتدخل فى ادارة الاقتصاد لأنه ادارته كانت أكثـر تعقيـدا بكثير من المـألوف لهم : تشغيل نظـام الرى المركزى ، مساحة الأرض بالحسبة العجيبة تلك الخاصة بـ ٢٤ مقسومة على ٢٤ على ٢٤ أيام الفراعنة ـ الفـدان هـذا حاجـة غريبـة تجلس تفـكر فيهـا رياضيا ·

الغرب لمـا غـزا وعمل مستعمرات أخضع هـذه المستعمرات لاحتياجات الاقتصاد الرأسمالى الذى نشأ فى الدول الغربية · الصناعة الحديثة الآلية ، لأنها زودت انتاجية العمـل جـدا ، أعطت امكانية التوسـع فى الانتـاج ، فالتوسع فى الانتاج احـدى وسيلتين لزيادة الربح ، فلكى نرفع الربح لا بد أن نخفض التكاليف · ونزود الانتاج لأن الربح الاجمالى هو حاصل ضرب الربح فى وحـدة من الوحـدات المنتجة مضروبة فى عـدد الوحـدات ، فكلما انقصت من التكاليف ، تزود ربحك فى الوحـدة فقـط ـ لمـا تزيد الانتـاج فكأنك تزيد الربح من ناحيتين وهـذا الانتاج اذا زاد ، أين يذهب ؟ لا بد من أسواق لتصريفه فيها ـ أيضا هـذا الانتاج عندما يزاد يحتـاج الى مواد أولية كثيرة ممكن ألا تكون متاحة فى البلد الذى بنى هـذه الصناعة ، فلا بد أن يسيطر هـذا البلد على البـلاد المنتجـة لهـذه المـادة الأولية ولا بلا من ناحية أخرى يضمن لنفسه أسواق لا ينافسه فيها أحـد ·

وبالصدفة أن أول صناعة آلية ظهرت فى انجلترا كانت صناعة القطن ، وانجلترا عمـرها ما زرعت قطن ، لكن ترتب على ذلك أنهـا كان لا بد أن تسيطر على الهنـد ولا بد أن تحتل أمريكا قبل ذلك · لأن أول قطن جاء لها من أمريكا وبعـد ذلك عندما جاءت الى مصر وجـدت فيهـا قطنا جيـدا · فرضت علينا أن تكون زراعة القطن هى النشاط الأساسى فى الاقتصاد المصرى

كله ٠٠ اذن فالاقتصاد الرأسمالى كنظام عالمى تميز بأنه يسخر طاقات كل بلد محتلة أو يسيطر عليه لخدمة مصالح الاقتصاد الأم ـ الاقتصاد الغربى ـ وبالتالى موقفه من التركيبة الاقتصادية الداخلة ٠٠ ليس موقفا محايدا ، أى يتركها على ما كانت عليه فقط ـ لا ، بل لا بد أن يدخل فيها تعديلات لكى تكون فى خدمة الاستعمار المثل الواضح نجده هنا فى مصر ٠

مصر كما ذكرت كانت بلد زراعى أساسا ، ولكن هذه الزراعة كانت موجهة لتوفير كل احتياجات البلد ابتداء من أن الأسرة تحاول أن تكون مكتفية ذاتيا ، الى القرية ، الى السوق الموجود بين القرى وبعضها ، الى السوق الكبير الموجود بعاصمة المركز ٠ وكانت فكرة أن تنتج شىء لكى تبيعه بعيدة ، ومن المحصول الخاص به تشترى حاجة ثانية ـ كانت فكرة ليست سائدة ٠ وبالتالى كان هذا الاقتصاد الزراعى يكفى القرية ، والفائض يذهب للمدينة فى مقابل الصناعات الحرفية التى تجىء من المدينة ٠

فى عهد محمد على بدأت مصر التصنيع الحديث وقتما أنشئت صناعة النسيج الآلية فى مصر فى عهد محمد على كانت صناعة لانكشير عمرها ٥٠ سنة فقط ، يعنى كانت الفجوة التكنولوجية محدودة للغاية ـ أحب أن أقول لكم أننا ابتدأنا فى مصر قبل اليابان بـ ٦٠ سنة ـ المصيبة أن اليابان ما هى الا بعض جزر ، ـ مواردها الطبيعية محدود جدا ـ (خربانة يعنى) والجزر مليئة بالجبال ، والمساحة التى ممكن أن تزرع محدودة ، والمنازل مثل علب الكبريت ـ فالاستعمار لم يهتم بها وانما تركها فى حالها ـ مصر أول ما ابتدأت فيها هذه التغيرات ، أوربا شعرت بالخطر ٠٠ لأن مصر لها بيئتها الطبيعية : بقية الوطن المصرى ـ وفعلا الأحداث أثبتت أن ابراهيم باشا ذهب الى الشام الفلسطين والحجاز ، ونزل على السودان ، بالاضافة الى أهمية الموقع من ناحية وسائل النقل لكى يذهبوا الى الهند وغير ذلك ٠

ومن هنا ضربوا هذه التجربة ٠ نكسة التنمية فى مصر حدثت مرتين المرة الأولى فى سنة ١٨٤٠ لما تحالفت أوربا ونسيت كل خلافتها الاستعمارية لكى تهزم محمد على أو ابراهيم ٠٠ والمرة الثانية سنة ١٩٦٧ ٠

والذى كان مقصودا هنا هو ليس مجرد الأرض ان أحد يحتلها ولا جيش لا بد أن يهزم المقصود أن تجربة تنموية لو نجحت ، تمثل خطرا على ما يسمى بمصالح الغرب ٠ مصالح الغرب ـ يعنى ايه ؟ (يعنى بلادنا تظل سوق لمنتجاته والمواد الأولية الموجودة عندنا يأخذها بتراب الفلوس)

باختصار هذه هى القصة ٠٠ لما جاء الانجليز أو حتى قبل أن يحتلوا – بتأثير نفوذهم على عباس باشا قفلت مصانع وتفككت وبعد ذلك لما وصل الانجليز وبحجة تسديد ديون اسماعيل باشا باعوا القطاع العام الذى كان موجودا للخواجات ٠٠٠ كان هناك شركة الملاحة الوحيدة (البوسطة الخديوية) باعوها للقطاع الخاص ٠

فى هذا الوقت الانجليز أيضا أعطوا البريد لشركة أهلية ، يعنى أهم المرافق فى الدولة ، وضغطوا على التوسع التعليمى الذى كان قد بدأ فى عهد محمد على وكل من قرأ عن فترة رفاعة الطهطاوى أيامها يدرك فترة البؤس التى مر بها هو شخصيا ٠ فى هذه المرحلة ٠

يبقى اذن لما ننظر بعد ذلك بـ ١٠٠ سنة ونجد أن انجلترا متقدمة ومصر متخلفة ٠٠ فيه علاقة سببية بين الاثنين : مصر كانت سائرة فى طريقها لكى تتقدم – قوة خارجية دخلت وأوقفت كل هذا وقالت مصر تنفع فى ماذا ، فى الامبراطورية البريطانية كلها – قالوا أنها تنتج قطن ليس له مثيل فى العالم ٠٠ اذن فلتخصص كلها لصناعة القطن – وجدوا فيها الزراعة عملية معقدة – ليس من الممكن أن يوجد بها رقيق ولا شىء من هذا القبيل ٠

أيضا عدد المصريين بالنسبة للأرض كبير نسبيا – ليس من الممكن أن تطردهم من الأرض وتبعث مستوطنين انجليز يحتلوها – اذن كانت الوسيلة للاستغلال هى خلق وتعزيز طبقة كبار الملاك ، وانه بدلا من أن تحكم انجلترا مصر مباشرة كما قال اللورد كرومر « نحن لا نحكم مصر وانما نحكم حكومة مصر » فتركوا لنا شكل استغلال ذاتى وخديو أو سلطان وبعد ذلك ملك ٠

بعد ذلك عملوا على تعزيز الملكية الكبيرة ٠ طبعا فى عهد الانجليز صدر القانون المدنى المصرى – ولأول مرة دخل مصر مفهوم الملكية الفردية الذى كان موجودا فى القانون الرومانى (يعبر عنه أن حق المالك أن يستخدم وينتفع ويدمر ملكيته) ٠ طبعا فكرة تدمير الملكية فكرة غريبة عن مفهوم الملكية فى الشريعة الاسلامية أصلا لأن الملك فى الشريعة الاسلامية رزق من الله ونعمة وعليك أن تحافظ عليها – أيضا أعطت لهم كل الأراضى التى كانت تمتلكها الحكومة فباعت لهم أراضى الخديو اسماعيل الموجودة والذى كان قد جمعها من الناس (الدائرة السنية) مثلما يفعل يوسف والى الآن بتراب الفلوس وبالتقسيط على (٢٠) سنة لكى تعزز الملكية الكبيرة خصوصا بين

أسر مصرية ، لأن الباشوات الذين كانوا متخلفين من عهد اسماعيل كان معظمهم أتراك ولاؤهم مزدوج للسلطان فى تركيا أو للانجليز هنا ، فخلقوا جانبها طبقة الأعيان المصرية الذين اجتمعوا بعد ذلك فى حزب الأمة فى مواجهة الحزب الوحنى · فمن غير استطراد تاريخى والذى نريد أن نستقر عليه هو أن ما يسمى تخلف اصطلاحا هو فى الواقع تنمية مشوهة موجهة لخدمة الخارج قبل أن تكون موجهة لخدمة أهل البلد نفسها ـ تنمية لماذا ـ لأنهم عملوا تنمية ـ عملوا مشروعات رى ـ طرق ـ دخلوا أنواع قطن جيدة ·

لا يمكن الغاء ذلك كله ، فهذه وقائع مادية ـ السكة الحديد ـ القطاع القطنى ، وكل ما يتصل به تطور أحسن تطور فى الدنيا ـ مصر كانت أول البلاد أدخلت سكة حديد ـ أصناف القطن ـ معهد بحوث القطن ـ الصناعة المباشرة لتعبئة القطن ـ (الحليج والكبس) ـ الجهاز المالى اللازم لتسويق عملية جمع القطن من الفلاحين الصغار الى أن يصل الاسكندرية · أنشئت البنوك لهذا وكان أهم بنك يعمل فى هذا ، بنك باركليز (بنك انجليز) ثم أنشىء البنك الأهلى الذى كان بنكا انجليزيا أيضا ، لغاية فئة كبار تجار الداخل ـ وكان فيه عدد كبير منهم يونانيين ـ الى بيوت التصدير بالاسكندرية ·· لبورصة الاسكندرية التى كانت تتعامل مع بورصة ليفربول ـ وتعمل عمليات تحكيم بينهم وبين بعض بالتلغراف ـ فهذا القطاع وكل ما يتصل به تقدم ـ وذلك كان على حساب الغاء الصناعة الغاء كاملا ـ ومن هنا كان تعبير أنها تنمية مشوهة أى انها غير متوازنة ، مثل ولد لما يكبر فى مرحلة المراهقة يطول زيادة عن اللازم أو العكس أقرب الى أن يكون قزم أو ذراع أطول من الذراع الثانية أو حاجات من هذا النوع · فمفهوم مشوهة يعنى لا تشمل الكيان الاجتماعى كله وبالعكس تحاول أن تنمى حاجات وتترك حاجات ـ مثل الذى يلعب دورا جديدا فيقوى عضلات معينة من جسمه على حساب عضلات أخرى ، أى ليست تنمية متوازنة ومن أجل ذلك نسميها تنمية مشوهة وهى فى المقام الأول فى خدمة انجلترا ·

شاهدت احصاءات التجارة الخارجية فى مصر ١٩٠٠ ـ ١٩٣٩ ، ففيما عدا سنوات انهيار القطن كانت مصر عندها دائما فائض فى الميزان التجارى ، أين كان يذهب هذا الفائض ؟ ـ هذا الفائض كان يذهب الى انجلترا سدادا لأرباح الأموال الانجليزية المستثمرة هناك ولفوائد القروض الانجليزية ، يعنى نموذج مصر فى الواقع حالة شفافة جدا ، لمقولة لمفهوم التنمية فى الغرب هى التى ولدت التخلف هنا ـ لأن التخلف أصبح ظاهرة

تاريخية ظهرت فى فترة تاريخية محددة · فهذه الفترة التاريخية المعينة مثلما نقول فترة الرق مثلا كان موجود فى فترة تاريخية معينة وانتهى · مظاهرة التخلف هى حالة البلاد التى خضعت للاستعمار الأوربى الحديث ـ يعنى فى خلال الثلاثة قرون التى مضت ـ وهذا الاستعمار الذى شكل اقتصادها ومجتمعها وسياستها على النحو الذى يخدم مصالحه الاقتصادية فى المقام الأول وواضعين فى الاعتبار هنا أن الاستفادة الاقتصادية أصبحت شكلا متقدما جدا وأوسع بكثير من حكاية (٨٠) ألف كيس التى كنا نرسلها جزية للسلطان أو للباب العالى فى اسطانبول · مصر كانت تدفع جزية حتى لسنة ١٩١٤ كانت ثمانية ألف كيس والكيس ٤½ جنيه مجيدى ، فكان معروف على الأقل المبلغ الذى يأخذه الأتراك ·

من داخل آليات السوق التى يقولون عنها ، من الصعب جدا أن تبحث عما أخذت انجلترا خلال هذه الفترة · اذا بدأنا من خلال هذا المفهوم السليم ، يبقى التنمية هى ليست اللحاق بالغرب ـ وذلك لأننا نقلده لأننا نريد أن نلحق به ـ فما أزعم أن أقوله ليس هو اللحاق بالغرب لسببين :

الأول ـ انه لا يمكن اختزال حضارات البشر كلها فى حضارة واحدة ، فهذه عملية مفقرة للبشرية كلها ، وأن كل حضارة وكل أمة فيها طاقات ابداع وانها لو استخدمت استخداما جيدا وبالدوافع التى تعظم عندها قدرتها على العطاء والتضحية والجهد وما الى ذلك ·· ممكن أنها تحقق تقدما ولكن تقدم لشكل مختلف عما حدث فى أوربا ، يعنى ليس للتقدم لاجتماعى والاقتصادى والفكرى صورة واحدة ـ هذا كلام خاطىء ـ وكلنا نعانى منه بتأثير الثقافة الغربية · لأن الثقافة الغربية فى الأصل تنكر وجود كل ما ليس أوربى ، الحضارة فى تاريخهم بدأت فى اليونان وازدهرت وانتشرت فى عهد الرومان وبعد ذلك نامت فى العصور الوسطى ، وبعد ذلك فى عصر النهضة حتى الآن (٤٠٠) قرن الأخيرة هى الحضارة العالمية وهذا ليس مغالاة منى ـ أنا أقتنى فى المنزل مشروع موسوعة لم يكتمل منه (١٨) جزء اسمه (الموسوعة الفرنسية) ـ كان فى الثلاثينات وزير فرنساوى أراد أن يحتفل بمرور ١٥٠ على انسكلوبيديا (ديدرو) ، فقال نعمل (انسكلوبيديا) جديدة ، وعملوها على طريقة ديدرو انها بالموضوع وليس بالترتيب الأبجدى ـ بحيث ان كل كتاب يأخذ موضوع ـ ظهر فى ١٨ جزء ، ولما نشبت الحرب العالمية توقف المشروع · الجزء الأول كان مخصصا لظاهرة الفكر وفى الصفحات الأولى منه قرأت بالنص ·· الآتى :

الفكر نوعان ـ الفكر السابق للمنطق ، والفكر المنطقى ـ الفكر السابق للمنطق هو الفكر الشرقى ، والفكر المنطقى هو الفكر الغربى ـ وهذه الموسوعة كتبها مجموعة من كبار العلماء فى العلوم الاجتماعية (يحكمون العقل) ٠

فاذا كانت أوربا أو أمريكا لا تقول ذلك اليوم بهـذه الفجاجة ٠ لكن تأكد أن فى أعماقهم هـذا موجود هـذه هى المشكلة ٠ واليابان مضايقاهم فى هـذه الحكاية فهى لا تضايقهم اقتصاديا فقـط ، اذن هـذا هو السبب الأول لشيوع مفهوم أننـا كنا متأخرين زمنيا وأن التقـدم له صورة واحدة ، وهو ما وصلت اليه الحضارة الغربية ـ وهـذا عقلا مرفوض ٠

الأمر الثانى ـ ان نمـط النمو الرأسمالى انبنى على تبـديد ضخم للموارد الطبيعية وتدمير للبيئة الطبيعية ، وانه لو تخيلنا مثلا أن يكون هـدف البشرية أن كل انسان يستهلك ما يساوى ما يستهلكه الأمريكى فى المتوسط حاليا ، فهـذا كلام محال ولن يتحقق ٠ لأن نصف ما يستهلكه الأمريكى على الأقل تبـديد ـ وهـذا كلام يبـدو غريبا ـ يعنى ايه تبديد ؟ (جريدة النيويورى تايمز ، العـدد الأسبوعى الخاص بها والذى يظهر كل يوم أحـد ، مكون من عـدة ملاحق ، مجموعها ١٤٠ صفحة ـ وليس هنـاك من يقـرأ كل هـذه الملاحق ـ والمنظر المـألوف فى نيويورك كل يوم أحـد أنك تقف أمام كشك الجرائد ، كل واحـد يأخـذ النصف الأول الذى يوجد به الأخبار العالمية وينتقى ملحق أو اثنين ، ويرمى بباقى الملاحق ، هـذا العـدد يستهلك ورق يمثل لب ربع/نص ورق من غابة مساحتها ٥٠٠ فـدان كل أسبوع ـ فى نفس هـذه الفترة لم تجـد الهنـد الورق اللازم لطباعة الكتب المدرسية الخاصة بها لأطفال المدارس الابتدائية ، فهم يفعلون ذلك لأن الهند لا تقـدر أن تفعل ذلك ـ فلو أن الهند أيضا سوف تصبح مثلهم ـ اذن لن تكون هنـاك أرض غابات فى العالم ـ هـذا صحيح ٠ والمـأساة هى بالذات فى شكل النموذج الأمريكى من الحضـــارة الغربيـة أو ما يسمى بمجتمـع الاستهلاك لأن الرأسمالية الأوربية فى البـدء كانت مدخرة جـدا وكانت تكره الاستهلاك المظهرى وكانوا يقولون أن هؤلاء الناس محدثين غنى الناس تعرف انهم أغنياء وهم ليسوا فى حاجة الى مظاهر لتأكيد ذلك ، النمط المبنى على (استهـلاك أكثر كل حاجة وأرمى بسرعة واشترى حاجات جـديدة) كان نتيجة أن الصناعة الأمريكية نشأت ـ التطور الأمريكى كله نشأ فى ظروف استثنائية لا يتصورها العقل ٠

هـذه القارة التى تشاهدونها أمامكم : كم اتساعها ؟ وبعـد ذلك ممتدة

بعكس الاتحـــاد السوبيتى من الشمال الى الجنوب ، فكل المناطق المناخية موجودة فيها ، فيها تقريبا كل الموارد الطبيعية الهامة التى من المـكن أن يتصورها الانسان • وبعدين سكانها الأصليين أبيدو وأتوا لها بسكان من أوربا على قـدر الاحتياجات الخاصة بهم ، أتوا فى سن العمـل لم يكلفوا أمريكا مليم من ساعة ما ولدوا الى أن وصلوا الى سن ١٨ ، ١٩ سنة جاهزين على الشغل ، فباستمرار كان عندهم فكرة ان الموارد الطبيعية هـذه لا تنتهى وعاشوا الى أوائل هـذا القـرن ـ تتضـايق ـ يقـولوا لك : Go West اذهب نحو الغرب الى أن وصلوا الى المحيط الهادى ـ فهـذه التجربة كانت نادرة جـدا من حيث قلة البشر فى مواجهة موارد طبيعية لا يتخيلها العقـل فى الاتساع ومن هنـا جاء الاسراف فى الاستهلاك والاسراف فى كل شىء فى أمريكا ـ الذى تحول الآن فى أمريكا الى ظاهرة عامة فيما يسمى مجتمـع الاسـتهلاك •

الى الحرب العالمية المـاضية كان رولزرويس يتباهى بماذا ؟ يتباهى بأن سيارته متينة وانها تعيش معك ١٠ ، ١٥ سنة لا تتغـير ـ اليـوم رولزرويس نفسه اضطر أن يعمل موديلات • الذى اخترع فكرة موديل ويتغير كل سنتين ـ ثلاثة هو الأمريكان ، وذلك من أجل أن الناس تترك ما بيدها وتشترى جـديدا وتعمل • كل هـذا يسحب من الموارد الطبيعية • هى فى النهاية محـدودة ، حتى الذى يتجـدد منها مثل الغابات ـ سرعة استهلاك الخشب أكثر من سرعة اعادة تكوينه ، فالغابات تتراجع كمساحة فأصبحت مهـددة حاليا والأمثلة كثيرة مثلما شاهـدتموها فى نهر الراين ـ فاذا كان ذلك يتم فى بلد مهتم جـدا بالنظافة وصحة سـكانه مثل السـويد ومثـل سويسرا فطبعا تفهم ببساطة حادثة مصنع جوجوبال فى الهند التى مات فيها أناس كثيرين ـ وهـذا ليس حكم قيمى الذى نحكم على النظام الرأسمالى ولكن على آليات سيره ـ الاقتصاد الرأسمالى مبنى على أساس أن كل واحـد يعظم ربحه يعنى يصل به الى أقصى شىء فيعظمه يعنى ايه ؟ يعنى يزود الانتاج • يجعل الطلب يزيد ويتجـدد وان كل تكلفة ممكن بحملها للمجتمع بدلا من أن يحملها لنفسه فيحملها للمجتمع ـ الذين يرموا بالمخالفات فى النيل عندنا ، لأنهم لو لم يرموها فى النيل لازم يعـالجوها ـ هـذا يمثـل تكلفه اضافية لهم ـ فلماذا لا يرموا بها فى النيل ؟ ما دام هو محاسب على أنه يعظم ربحه فقـط ، وبالفرض الضمنى أن المصلحة العامة تنشأ من خلال هذا الصراع الفردى ، اذن التكلفة الاجتماعية كما نسميها فى الاقتصاد هى عملية اتلاف موارد كثيرة والمخاطر التى تترتب عليها •

اذن يجب علينا أن نفكر فى مستقبلنا فى اطار جديد تماما يبدأ أولا بالاقرار بهويتنا الحضارية : اننا لا نريد أن نكون أوربيين ، ولا نستطيع أن نكون أوربيين يعنى لا هذا مطلوب ولا هو ممكن ٠٠ فالغربية ، فى المهجر وأولاد ناس مهجرين متعصبين دينيا كمسلمين بشكل لا يتصوره العقل ٠ أكثر من ذلك الأقباط المصريين فى أستراليا أو فى كندا أو فى الولايات المتحدة بنوا كنائس وبعثوا للبابا هنا لكى يبعث لهم قسس أقباط ، مع أن أمريكا هذه فيها ٥٠٠ر٠٠٠ ألف كنيسة يعنى انتقى ما يعجبك ولكنهم مصرين على ذلك ـ يعنى هذه آخر حاجة يمكن للانسان أن يحتفظ بها ـ ضد عملية الاستلاب الكاملة ٠

أيضا فى مستوى سعادة البشر ٠ ليس هناك أشقى من الانسان فى مدينة مثل نيويورك وهم أنفسهم الغربيون كتبوا عن الوحدة وسط الملايين ـ الشعور البشرى ـ تكاتف الناس فى الأسرة ـ هم أغنياء ماديا فيترتب على ذلك ماذا ؟ ان أم الانسان عندما تشيخ يضعها فى منزل للمسنين صحيح يكون لهم رعاية طبية والتغذية التى تناسبهم ، لكن الأم فى سن ٦٠ سنة أو ٧٠ سنة أهم ما تحتاج اليه هو التعاطف الانسانى وهذا لا يمكن أن يشترى ، فهذا المجتمع بسبب تركيزه الضخم على الحاجات المادية للانسان وافتعاله لحاجات ليس لها أساس ، لكى تجرى الناس ورائها وتبدأ تصرف فيها أدى الى فك المكونات الاجتماعية الخاصة بالمجتمع الى درجة أن مستوى الأسرة بالمعنى الضيق الذى يسموه الأسرة النووية ـ أصبحت لا تعيش مع بعضها ، أول الولد أو البنت تصبح سنها ١٧ ، ١٨ سنة تترك الأسرة أو هو يترك الأسرة وأهلها مبسوطين لذلك ، كل واحد فى حاله ، قبل هذه الحكاية نجد الأسرة عادية جدا ، لانه فى موسم الاجازات تجد الزوج يصيف فى مكان والزوجة فى مكان آخر والأولاد فى معسكرات تصيف جماعية ـ جميل جدا أن أخفف من أعباء الأسرة لكن ليس الثمن ضرب البعد الوجدانى فى الانسان وحاجته للحنان وتراثه البشرى ٠

ونحن نرى ذلك فى موضة تقليد الغرب فى حاجات استهلاكية صغيرة وأنا أفتقد فى القاهرة اليوم مثلا (المقهى) التى كانت موجودة زمان ـ القهوة هذه كان فيها نوادى أدبية ممتازة جدا مثل دار اللواء والفيشاوى ٠ السياسات المصرية للوزارات كانت تتألف فى دار اللواء ، فى الوقت الحاضر الموضة النوادى ـ القهوة مفتوحة للجميع لكن النادى فيه انتقاء ٠ أكره جدا السوبر ماركت وأحن الى البقال الذى يعرفنى وأعرفه ويسألنى عن زوجتى

وأسأله عن أولاده ، هـذه العلاقة الانسانية تحولت الى علاقة بين الأشياء ، أنت تدخل سوبر ماركت وخصوصا فى أوربا هناك ـ هنا لأن العمالة كثيرة فتجـد عمال · هناك لا تجـد عمال كى تسألهم عن هـذا الصنف ، داخل السوبر ماركت لا تجـد عاملا اطلاقا · هم يحتجزوك وأنت خارج عند الكيس لكى تدفع فقـط ·· فتجد مثلا عندك ، ٢٠ صنف شاى مثلا مختلف ، أيهم تنتقى ؟ ، لا تعرف ! العلاقة الانسانية انتهت تماما ، ويترتب على ذلك حاجات كثيرة ، ولا نريد الاطالة فى هـذا ·

ولكن ما نريد أن نقوله ·· لأن فعلا التنمية محتاجة لثورة ثقافية فى قلبها مسئوليات التربية والمسئولين عن التربية ، لأننـا محتاجين لاعـادة تربية للعقل وللفكر وأيضا للسلوك الاجتماعى ولعادات العمل · هذه الحاجات كلها وهـذا لا يمكن أن يتم على أيدى اقتصاديين ولا على أيدى مخططين ، فأنا لا أغالى حين أقول اذن أنه فى أى نظرة استراتيجية طويلة للتنمية ـ يعنى نظرة تتجاوز ٥ سنين والعشر سنين ، لو نظرنا على أفق (٢٠) أو (٣٠) سنة فحجر الزاوية فى التنمية هو تربية الأجيال الجديدة ، على أنها تطلع متمسكة بقيم معينة لها مبادىء ولها قواعد انضباط معينة (انضباط ذاتى) وليس انضباطا يفرض عليها من المجتمع · وأهـداف تعمل لها لأنه يمكن الناس اللى زينـا الذين يعرفوا بما يسمى بالتخلف هو أن ما زالت هنـاك أرض عنـدهم من تاريخهـم وحضـارتهم وقيمهم ممكن تجعـل التقـدم المـادى لا يحطم ، ولا يعنى شقاء البشر بالضرورة ، ولا يحطمها ·

ان الانسان له حاجات بدنية وحاجات عقلية وحاجات روحية يجب الاعتراف بهـذه الحاجات جميعا ومحاولة تنميتها جميعا وطبعا هذه ليست عودة للوراء بل بالعكس هـذا تجاوز لمـا هو موجود ومثل ما أنتم عارفين فى التربية ـتقولون ـ ان اليوم المدرسة المفتحة أحسن كثيرا من المدرسـة المقفولة ، المدرسة المقفولة لم تكن موجودة عندنا ، وهى ترجع من اختلاف الأديان ، ومدارسنا كانت بجانب السبيل ، والذى يريد أن يجلس فى الحلقة يجلس واذا لم يرد فيترك الحلقة مع السلامة ·

ان التربية أساسا هى تكوين الشخصية أو مساعدة الانسان على تنمية ملكاته وقدراته الموجودة فيه ، وكلنا مسـلمين ان قـدرات البشر وملكاتهم وأمزجتهم ليست متساوية لكن لا بد أن كل قـدرة عند الانسان أن تنمى بقدر الامكان وبعـد ذلك والله المتفوق فى شىء سوف يسير فى طريقه · لكن فيه

جزء جامعهم كلهم من خلال العملية التربوية المختلفة عن العملية التعليمية التلقينيـة ٠

فى عصرنا الحالى لا بد من التسليم بمفهومين : الحق فى التعلم والقدرة على التعلم ، لأن العلم اليوم يتطور بسرعة شديدة جـدا ، ولم يصبح هنـاك كتاب فيه علم الدنيا والآخرة ، زمان كانت الأسرة تشتكى التلميذ لناظر المدرسة فكان فيه نوع من التكامل بينهما ٠ فى الوقت الحاضر هـذا مفتقـد ٠

أيضا الحاجات التى نعلمها له كمعلومات علمية أصبحت مسبوقة حاليا فماذا تعطيه ؟ ـ تنمى فيه القدرة على أن يعلم نفسه وانه يكون باستمرار عنده الرغبة للمعرفة ـ اذن المقصود لا يبقى التعليم كهدف فى ذاته ويكون المقصود هو المعرفة ٠ هـذم المعرفة سوف تعطين أساسا ارتباطاته الاجتماعية وارتباطه بالمجتمع ٠ مرحلة المهنة واختيارها ومثل هـذه الحـاجات يجب ألا تحسم قبل أن يتجاوز الطفل أو الطفلة مرحلة المراهقة كاملة ـ لأن الثورة البيولوجية التى تحدث للجسم فى سن المراهقة تحدث فى العقـل وفى كافة القـدرات ٠ تجـد واحـد وصل سنه ١٥ سنة ثم يكسل ٠

فالامكانيات والقـدرات لا تصادر بسـبب انه ابن فقير ولا بسـبب أنه ابن غنى ولا بسـبب ان لونه أسود أو أبيض ولا أيضا تصادر قبل أن يتاح له فرصة ادراكها واستخدامها ـ واسمحوا لى فى هـذا التعبير ـ العضو الجديد الذى نسميه فى المجتمع (الطفل) يولد مرتين ـ يولد ماديا وبدنيـا فى لحظة معينة اسمها الوضع وتكون هنـاك داية تساعد الدكتور ويولد مـرة ثانية فى الفترة التالية للمراهقة مباشرة ويجب أن يكون المولد هنا هوالمربى أو مجموع العملية التربوية التى تشتغل فيها عـدة أجهزة فى المجتمع ٠

وفى الختام بتعبير اقتصادى بسيط جـدا ، كل الآلات الموجـودة فى الدنيا صماء بدون عمل ـ فماذا هى اقتصاديات العمل ؟ هل المشكلة التاريخية ـ الذى يصرف على التعليم ـ ناس تقول انه حق اجتماعى وناس تقول انه عـدالة اجتمـاعية ٠ هـذا كلام فاضى كله وانمـا اسـتثمار قطعـا وليس استثمار بالمعنى الرخيص ٠

الانتاجية فى كل الدول المتقـدمة تتزايد سنويا يعنى لا نهاية فى امكان تقـدمها وكل اختراع الآلات فى الثـورة الصناعية الأولى واختراع الآلات المفكرة التى يسمونها الكمبيوتر وما اليها كل هـذا وسائل فى أيد الانسـان من أجل أن يزود انتاجيته ولا يمكن أن يفكر الانسان فى الانتاج ويهتم به ويصبح سعيدا انه يصنعه ويتقنه ويطوره اذا لم نكن قـد كرناه بالمعنى

الشامل الذى نريده ، وهو ليس مجرد تعليم الكتابة والقراءة لأنه كما ثبت وأنتم خير من يعرف انه على الأقل ١٠٪ من خريجى المرحلة الابتدائية عندنا يرتدوا الى الأمية مرة ثانية ، لأن حياتهم الاجتماعية والانتاجية لا تستلزم أن يقـرأ ويكتب ، يعرف الامضاء فقط ـ وليس أكثر من ذلك ٠

ان هـذه أصابت صدى جـدا عندى عندما طلب الدكتور سعيد منى أن أحضر لأتحـدث معكم هـذه الليلة لأن كل شغلى فى الفترة المـاضية كان عن حجر الزاوية فى التفكير التنموى وهو الانسان وعندما أتحدث عن الانسان لا بد أن أتحـدث عن التربية الخاصة به ٠